الأدب التركي [1]

آثار توفيق فكرت وحسين جاهد

ان اخلاق الناس وقوة نفوسهم وأعصابهم وأذهانهم ، وأساليب العيش الذي يعيشونهُ وروح الفن الذي يحملونهُ في كل وجوه العمل ومطالب الحضارة ، لا يمكن ان تتجلى بجملتها في صورة واحدة ، الا في الآداب التي تخرج من الناحية السامية فيهم ، وهي كتابهم وشعراؤهم واهل التفكير منهم . فانت تستطيع ان تدرك طرفاً من شعور الفرنسي ونظام بيته واخلاقه ، وقوة الروح الفنية عنده من قراءتك كتب فيكتور هوغو وحدها ، وان لم تتم برؤية فرنسا آخر حياتك ، ولم تتقلب في بلادها ، وتدخل مغانيها وبيوتها ، وتظفر بصداقة مع طائفة من افرادها . وكذلك تستطيع ان تفهم من الادب التركي اي نفوس كانت تحمل الترك ، واي اعصاب كانت لهم ، واي اخلاق كانت تتخلق ، بل انك قادر ان تتبين من طرازهم في العمارة وهذه التماثيل والتثنيات التي كانوا يزينون بها شرفات قصورهم ومظلاتها وقبابها ، روح ناميق كمال بك في معرجاته واستفاضاته . ومن ادبهم الذي لم يكن يحتوي غير حكايات قصار ، ونوادر موجزة ، وابيات افذاذ وكلمات مقتضبة ، تستطيع كذلك ان تعلم انهُ قد كانت لهم نفوس قلقة ، وقلوب وثابة ، واعصاب حارة ملتهبة ، فلم يكونوا يطيقون الصبر على البحث الادبي المستفيض ، والكتابة التفكيرية الممتدة ، اللهم الا في حدود الفقه والحديث وعلوم الفارسية واشباه ذلك ، وهذه كانت لا يطيقها الا شيوخ منهم يحسنون فتور العلم ، ويحملون في اعصابهم العلمية برودة القطب

واذا تقرر ذلك فان الادب التركي كان الى عهد قريب يحمل مفاسد الجيل وطبائعه واخلاقه ، وعوارض الانحطاط الذي كان يسود كل ناحية من نواحي الحياة المريضة التي عاشتها تركيا ونحن واجدون في كل ما يخرج من افواه شعرائهم ، وتقذفهُ المطابع من اقلام كتابهم وشعرائهم صوراً شتى من غرائب الطبائع التي تشهد آثارها في حياتهم ، اذ كان كل ما كتبهُ هؤلاء وانشأوه يجري مع مطالب الجمهور ، ويتنزل على حكم السواد الاعظم ويدخل على قلوب العامة

---

(١) من محاضرة الاديب نقولا شكري القاها بدار جمعية موظفي الحكومة المصرية بالاسكندرية بدعوة من جماعة الادب المصري

واشباههم من ناحية ما يحبون ، ويطالعهم من ناحية ما يفكرون ويعتقدون . ومن ثم كان الجمهور العادي في تركيا هو الذي يقود التفكير ، ويسيطر على الذهن ، ويستبد بكل منتجات القرائح وثمرات العقول ، وما كان الكتاب الذين تأبى عليهم مطالب الربح والذكر والشهرة الا ان يتابعوا هذا الجمهور الذي لا يزال في طفولة الحياة ، ولا يزال يعبث بروح الماضي

***

على ان الادب التركي مالبث ان انتعش في القرن الاخير ، وخرج من حدود الطفولة الى ادوار الحياة القوية المكتملة اذ جاء عديدون من كبار الادباء يدخلون على هذا الادب الضعيف روحاً جديدة من التهذيب ، وسيلاً عدة من التفكير العميق ، ومما لا يخفى من دلائل النضوج ، وسمو الذهن ، وبواكر العبقرية ، وهؤلاء الذين رفعوا لواء الادب التركي الجديد هم الذين سيتناولهم البحث دون غيرهم من الادباء الاقدمين

ونحن غير آخذيهم بالدور ، ولا متناولهم بالترتيب والتعقيب ، وانما تاركون انفسنا على سجيتها وعنان خواطرها ، فقد نجيء بآخر كاتب قبل اول اديب ، ونبدأ من الذيل ونترك الرأس ، فنتناول الاديب من عرض جماعته ، وسفوف طبقته وندع صدورهم ، ونترك وجوههم

***

وبعد ، فقد اخترنا ان نتحدث عن توفيق فكرت بك شاعر تركيا وأديبها الكبير المتوفى منذ بضع سنوات

في الصف الاول من صفوف الكتاب العصريين ينهض هذا الرجل الخصيب الذهن ، القوي الاثر ، وقد أحدث في الآداب التركية تغييراً خطير الشأن ، وارسل في أرواح الشباب والمتحدرين الى المستقبل تطوراً شديد السلطان ، اذ كان في الحياة العامة قائداً يمشي في اثره كثيرون من المتطلعين الى التهذيب ، النازعين الى مناهضة المباديء القديمة التي لا يزال بعض عليها بنواجذه سواد طبقات الشعب التركي . ولعله كان محدثاً اكثر مما احدث لو ان غالب الحب الذي يتغلغل في نفوس اكثر الناس لروعة المنصب الحكومي وفخامة مقاعد الادارة ، أو لو انه اذ جلس مجلسه ، وتولى منصبه ، لم ينس الناس ، ولم ينصرف عن الجمهور ، ويرضى بعمل هين ليس فيه من متعبة الا كثرة الامضاءات والتوقيعات ، ومراجعة القوائم والكشوفات

على ان الحكومة لم تأخذه اليها الا يوم نشبت الحرب ، وطارت شرارة المجزرة ، وخمد صوت الفكر متبدداً في تضاعيف صوت القنبلة ، وانكمش المفكرون متضائلين امام اهل السيف فلم يكن ثمة سبيل الى هذا الرجل المفكر ان يرسل قلمه في تفاسير السياسة ، وينطلق في شرح اعاصير الدول ، ويخوض في نبوآت الحرب . وكان الرجل لا يزال مهيب الفكر عند الحكومة ، محترم الذهن عند كبارها ، فلم يسع انور باشا الا ان يذهب اليه فيهمس في اذنه : «ايها الرجل

المفكر ، ليس لك الآن محل في الحرب . ان زملاءك اليوم في الامم المحاربة قد سكتوا ، اذن فتعال عش في دار الآثار ، تعال أخرج لنا من هذه المطمورات تمثالاً للمفكر منسيًّا »

حتى اذا استرسلت الحرب في عزيفها ونكرها وصريخها ، لم يلبث ان ملَّها الناس ، واعتادوها ، ورضوا بالآلام التي تجيئهم من نحيتها ، وراحوا يتلمسون عنها العزاء . ويتفقدون السلوى وليسوا بحاجة الى شيء مثل القراءة ، ولا أذهب لاحزانهم من الكتب ، لانها تسد جراحات النفوس ، وتسكن آلام الاذهان ، اذ كانت مواد التسعيرات جعلت مطالب المعد تسود على مطالب العقول ، وقد تعب الناس من كثرة التفكير في الاكل ، اذ علموا ان الحرب ستأكل الجزء الانساني فيهم ، وتدعهم نوعاً جديداً من الحيوانات المتكلمة ، اذا لم يحتفظوا بقلوبهم واذهانهم . وكان هذا الرجل المفكر يستطيع في ذلك الزمن الاحمر القاني من دماء الابرياء ان يكون بلسماً ، وكان فكره الخصيب خليقاً بان يكون معزياً ومواسياً ، ولكنه ترك الناس لآلامهم ، وجعل نفوس القراء المتلهفين على قراءة البديع من الفكر في سكون اشبه بسكون الموت ، ولم يخرج للجمهور الا نادراً ، وقد كان ذلك يوم هجوم الحلفاء على الدردنيل فقد نظم قصيدة طويلة هي صرخة قوية يستنهض بها الهمم ويستثير الحماسة قال في مطلعها : —

« لقد دق ناقوس الحرب في الدردنيل وصيحات المتطوعين الباسلين تدوي في فضاء السموات الجلوة الجبلة ، هذا النور هاتفاً ينادي الى الجهاد ، وهو الذي ظهر في الارض التي حول طرابلس بطلا صنديداً ووقف لا خوفاً ولا رهباً ، وثبت وهو قليل حيال الاعداء وهم كثيرون

« وهؤلاء المقاتلون انجبتهم سيطهرون البلاد من القسوة والشناعة بشجاعتهم وبسالتهم

« ان لي اعتقاداً شديداً بأنهم الظافرون بالنصر ، ولكن ابتهاجي بيوم الخلاص ، سيسدل عليه الحداد حزناً على التضحيات الغالية »

ومما يروى عنهُ بعد ذلك انهُ ادخل تجمله « خلوق » في « كلية روبرت » الاميركية بالاستانة فوقع تحت يده دفتر من دفاتر الفروض المدرسية وقد رسم في اعلاه العلم الاميركي وكتبت تحته بالانجليزية هذه العبارة : « لعيش لتعيش » فرسم الفتى صورة العلم التركي الى جانب العلم الاميركي وكتب تحته بالانجليزية العبارة الآتية : « عوت لتعيش » فاثار بذلك شاعرية ابيه فنظم قصيدة عنوانها « الى ولدي » وهذه القصيدة تعد من عيون قصائده وسأتلو على حضراتكم بعض ابياتها بالتركية ثم اتبع ذلك بترجمتها العربية . قال الشاعر : —

« بني ... لو اني حلتك جبأة ، واسلمتك لهذا الهضم المصطخب ، وخلفتك طعمة لهذه الاعماق

« انت ولو انك لم تعهد الخوف ، هل تدري ماذا يكون المآل ؟

« ان هذه الصفحة الرجراجة طافحة بحتفك تحن بك الفزع ، فتصيح وتجاهد تلمساً للخلاص ، ولكنك لن تستطيعه لان هذا اليم يحيف عليك بكلكله ويجتذبك بقوة حديدية الى الاعماق

« هذي يا بني هي الحياة . آليت الا تجرع مثل هذه الكاس المريرة . وربما . ان البشر سوف يحاولون ان يخطو العالم خطوة جديدة في سبيل الخلاص

« ما انا فلا ادري كيف تكون الوسيلة الى هذه الغاية . ترى هل يتاح للانسانية المعذبة المفجوعة بجرح الذرورة خطوة خطوة ؟

« صدقني يا بني ، انه شقاء ابدي ، وانه غش وخداع . . . ! »

ويعد ، فلعل من اشهر مميزات توفيق فكرت بك انهُ يخص قومه بالوجهة اللامعة من آثاره ، حيث يجري في احساسه عامل نفسي طبيعي يصرح ابداً فيه ، وهو عامل الحيوية القومية الخفية في الفرد ، هو شعور مختجب غريب يربط الانسان بالحياة الاجتماعية التي يعيش فيها ، وكذلك كل كاتب يعيش في امة حية،فاذا كتب فانما يعطي الانسانية آداب امته ،وينحني امام هذا العامل النفسي القوي فيعد هذه الآداب اكبر مقياس لآداب الانسانية كلها ، ومن هنا نشأ الزهو الاجتماعي السائد في الامم الحية الشاعرة بذاتيتها المحسة حيويتها

ولعل ابدع ما كتبهُ هذا الشاعر قطعة خالدة دعا فيها الى الوحدة الروحية بمحو التعصب للجنس والتعصب للون ننقل شيئاً منها فيما يلي . قال : —

« لقد اسرفت الامم في الاثرة والانانية . وفي العصبية الجنسية التي تمسك بها فريق من اهل الامم المتحضرة

« ولا شك عندي في انه يجب ان تزول الاثرة وان يزول التعصب للجنس والتعصب للون ، ويجب ان يشعر العالم ان هناك وحدة روحية تربط امته المختلفة ، والوسيلة لوحدة الفهم الانانية وزوال التعصب الجنسي ليست هي الحديد والنار وانما هي انتشار الافكار السلمية بين الشعوب وسيما لادراك الحقيقة وفي هذا تم السلام على الارض . لان السلام لن يترتب على عمل صناعي مطلقاً كالاتفاقات الدولية وما اليها انما الوسيلة الوحيدة لتحقيقه هي الوحدة الروحية »

* * *

ننتقل بعد ذلك الى الكلام عن اديب كبير من الاحياء حكم له ادباء الترك بالتفوق وشرفتهُ الحكومة بالالقاب وهو حسين جاهد بك الذي مارس صناعة القلم زمناً غير يسير اذ كان رأس تحرير جريدة « طنين » الشبيهة بالرسمية

وقد آثر جاهد بك ان يضع افكاره وفلسفته وآراءهُ في اساليب حلوة من الرواية ، وموضوعات سهلة من القصص حرصاً عليها ان تروح مستقلة على اذهان الجمهور . مستغلقة الفهم ، باردة الروح ، مستكرهة الطعم . وهو لذلك يعد في طلائع الروائيين ومن اكابر المفكرين ، مذ كان في الرواية اسمى فروع الادب الصحيح المتحضر المنتعش ، وهو في الغرب قد اصبح جماع علومه وآدابه وفلسفاته ومبادئه

ولقد يكون جاهد بك اصدق كاتب تركي في نقل صور الحياة التركية ، هو مصور متفنن يتعمد ألاَّ يغير من الواقع ، ولا يزخرف ولا يلطف من خشونة الصور او قبحها ، وكلُّ ما في الحياة التركية مما رآهُ او استكشفهُ ضمن قصصه

وقد تعمد جاهد بك ان يبني وقائعه على الحقيقة ، ومن الممكن ان يكون أشد الروائيين غلوًّا في مذهب الحقيقة « رياليست» هذا الى آرائه النظرية التي يحفظ بها حوادث الرواية . وهو ذوق ظاهر في فنه يتوخاه دائماً ولكن دون ان يكون له اي تأثير في القصة . وأميز ما

يمتاز به جاهد بك ان يشعرنا بالحياة في القصة ، الحياة المنقولة بصانة وصدق كما هي في الواقع ، وانا لنحب ونحن نقرأ رواياته انا نرى الاشخاص ونسمعهم بل ونشمهم . ومهما يكن من جهل قارئه بتركيا واجتماعها فانهُ لا يعتوره اي شك في صحة الصورة التي يقدمها اليه في احدى رواياته ، وصفوة القول أن غاية جاهد بك تنحصر في ان يقرب للفرد التركي ما استطاع صورته الحقيقية في المجتمع . وقد نجح

ومن اشهر قصصه قصة اشتراكية عنوانها « وكانت الذئاب تعوي » ونحن ناقلون فيما يلي فصلاً من هذه القصة الطريفة. قال : —

«جرى ذلك في الغابة عند المغرب الاخير من احدى ليالي الخريف اذ كانت الذئاب تعوي»

«وكانت الاوراق الذابلة تنفصل عن الاشجار بتؤدة كما تتبدد احلام المرء اذا صحا من نشوته

«وتسقط على رؤوسنا بخفيف يشبه الزفرات الحصيرة . فما اتعس نهاية احلامنا ! وكان ذلك الخريف حزيناً يبكي وينتحب في الظلام خلال الاغصان مع الحشرات الاخيرة التي كانت تأوي الى بعض الشقوق والجحور فتموت هناك او تختفي تحت قشرة جافة تأتت من جذع الشجرة قتيلا

«وكانت الذئاب تعوي

«اما عواؤها فكان صوتاً تهديداً كانه دوي عاصفة قوية ، وثارة تشكوى الغضوب العاجز فينتشر فوق الاشجار الساجية هنيهة ، ثم تعود تلك الظلمات الى سكونها ، وينقطع دبيب الحشرات وعلك الليل نسماته فينتفض بهدوء تنفس الخائف الحذر

الى ان قال : —

عوت الذئاب من جديد عواء شديداً مزعجاً حتى لقد اعتقدنا ان ضوء نارنا يزعجها فتهوم حولنا مضطربة مضيقة خناقها

قال رفيقي : ما أقبح هذه الوحوش

فاجبته : لقد خافت النار

قال : كلا . ولكن العالم ضيق حتى على الحيوانات فليكن ملعوناً . فشعرت كان آلاماً عميقاً يجيش في صدره ، وكان وجهه مصفراً تنم عليه اضواء النار فيصبح كانه شبح من الاشباح

وعاد صديقي الى السكلام قال : اني تعب . اود ان انام نوماً طويلاً عميقاً

قلت له : نم وانا اقوم على الحراسة . فتمتم قائلاً بلهجة التوبيخ : ايها الحبيب انك لم تفهم مرامي اريد ان اقول لك نوماً طويلاً بدون يقظة . نوماً ابدياً

ماذا اصابك ؟ اني تعب . تعب جداً من الحياة . بعد السجن وفي الحرية . اف لهذه الحرية انها اضيق من السجن . اصغ الي . أ وبعد ان ألقى على تفصيلات فراره من السجن وقتله الجندي الذي كان يقوم على حراسته قال :

هذه الارض ضيقة . لقد اقتفتني الظلمات في الليل حيث حجبت عني حتى حارسي . واستمر النهار جافتاً مزعجاً متجلداً في اجواء ملاطها الصخور لكنت شيئاً من التسلية وشيئاً من الحرية اني لا يستطيع بهما الا بتدمير ضفتيه وطغيانه على الارض بحمل الدمار والموت . وكنت حينما التقت احد مشهداً واحداً من الطبيعة . لا بد من التدمير والقتل لاحراز الحرية . وقد سئمت في الظلمات وضاقت في الغابة . الغابة والليل كلاهما أسود كالحياة ، مملوء بالحيوانات كالحياة

«تشخش العشب الجاف . ومر امامنا ثوب فهزم أمام وحش ضار فقلت : اشهد ذاته . كل خليقة في العالم تنازع وتفترس خليقة اخرى . وعوت الذئاب من جديد

فالتفت الي وقال : هل سمعتها ؟ هذه الوحوش الضارية تقوم بجنازة حربي وشكواها لا تنقطع أبداً . والعالم ضيق . ضيق . ضيق »

(في فصل تالٍ يتناول الكاتب أدب خالدة اديب خانم)